مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد:06./ العـدد: 02 / ديسمبر (2022)، ص.406/396

تجليات الهوية في شعر الفخر عند الأمير عبد القادر الجزائري

The Manifestations of Identity in the poetry of pride for Prince Abdel Kader Al-Jazaery

شهيرة برباري
chahira.barbari@univ-biskra.dz
جامعة محمد خيضر- بسكرة
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/01/06 تاريخ القبول: 2022/04/24 تاريخ النشر: 2022/12/02

ملخص:

تسعى هذه الدراسة من خلال البحث في مكونات الهوية بكل مستوياتها، إلى محاولة النظر في نصوص شعرية تجلي أبعادها فكريا وجماليا، كما نحاول في ذلك البحث في المصطلح والمفهوم للهوية في ارتباطها تشكيلا ودلالة بالنصوص الشعرية ممثلة بغرض الفخر – بوصفها قضية إبداعية قائمة بذاتها في الخطاب الشعري للأمير عبد القادر- نحاول من خلاله تقديم مقاربة جمالية منهجية في قراءة هذه النصوص؛ وذلك لاستجلاء الحدود الفكرية للهوية في علاقتها بالمضمون الفخري وما تضفيه من دلالات ورؤى وقين عليه، وقد حاولنا النظر في مستويات وأبعاد الهوية في النص الشعري الفخري الأميري الذي بين أيدينا، بالتركيز على تجلي الهوية فيه من خلال قيمة الوعي الجمعي والقومي، وعلاقته بالوصف والفكر الفردي الذي تمثله الذات الشاعرة.

كلمات مفتاحية: الهوية، الشعر، الفخر، الأمير عبد القادر.

Abstract:

This study is aimed through the components of the identity research at all levels, to provide an understanding of the poetic texts demonstrated by their dimensions aesthetically and intellectually,we are also trying to research the term and the concept of identity with its composition and meaning of the poetic texts are represented for the purpose of pride- as a self-contained creative issue in poetic discourse of the Algerian ELAMIR ABDELKADER - , through which we try to present a systematic aesthetic approach to reading these texts, in order to clarify the intellectual identity boundaries in its relationship to the honorary content, values and visions it confers on it, we tried to look at the levels and dimensions of identity in the pride poetic text of ALAMIR that we have. Focusing on the manifestation of identity in it through the value of collective and national consciousness with its relationship to description and individual vision represented by the poetic self.

Key words :*Identity, poetry, pride , El-Amir Abdelkader.*

مقدمة:

يمثل الأمير عبد القادر نموذجا مميزا في تاريخ الأدب الجزائري بسبب تعاطيه شيئا من الكتابة من موقع متميز وفي وقت خاص، كانت فيه بلاده تصارع ما ابتليت به على أيدي الاستدمار الفرنسي من أنواع الظلم والقهر والطغيان، وخلف نتاجا أدبيا يستحق التأمل والدراسة في جانبيه الفكري والإبداعي.

وسيكون تركيزنا على نتاجه الشعري ممثلا بشعر الفخر الذي اخترناه مادة لهذه المقاربة؛ إذيمثل الخطاب الشعري للأمير عبد القادر في ثوبه الفخري نصا حيويا ثريا منفتحا على القراءات الجمالية والفكرية بما يزخر به من مكونات لغوية وتصويرية أو مضامين قومية ووطنية.

1. الهوية، المصطلح والمفهوم:

يشكل مفهوم الهوية إشكالية غير قابلة للتجاوز في الوضع البشري بين الثبوت والتغير؛ فالهوية هي الذاتية والخصوصية، وهي المبادئ والقيم والمثل، هي كل ذلك وأكثر من ذلك تحكمها سياقات الدين واللغة والوطن والتاريخ والسياسة والثقافة بكل أبعادها الفكرية والاجتماعية ووفق مضامين ومكونات تحكمها التغيرات الطارئة والمؤثرة في هذه الأبعاد وتلك السياقات.

و"مفهوم الهوية كرسم (هـ، و، ي، ة) مصطلح متسرب إلى الثقافة العربية الإسلامية، وليس أصيلا فيها، وزمان تسربه يعود إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ والذي يبرر هذا الحكم في اعتقادنا هو ظهور الكثير من المصطلحات والمفاهيم التي عرفتها الثقافة العربية وأصبحت تشتغل عليها نخبها المثقفة، حيث ظهرت في هذه الفترة مصطلحات كثيرة مثل: الحرية، الأمة، القومية، المواطنة، الثورة، المساواة، الوطنية،(...) ومنه يمكن القول إن هذا المصطلح قد وفد إلينا ضمن منظومة هذه المصطلحات، وغيرها من المفاهيم الجديدة"[1].

وإذا تتبعنا مصطلح 'الهوية' نجد أنه ذو أرضية فلسفية يمثل ضمنها أحد المفاهيم التجريدية المعبرة والدالة عن الماهية والوجود والجوهر...، وما يعنينا هنا هو انتقال الهوية مصطلحا ومفهوما إلى البحوث الاجتماعية وعلاقتها بدوال ومدلولات الثقافة والدين واللغة تعبيرا عن فكرة الانتماء.

والهوية في مفهومها الاصطلاحي تشير إلى أنها: "القدر الثابت والجوهري، والمشترك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى"[2]؛ فهي تدل على الخصوصية التي تتحدد وفقها سمات حضارة أو أمة تتميز بها وتختلف فيها عن غيرها من الأمم أو الحضارات في نوع من الاستقلالية الذاتية على مستوى الجماعة، وتفاعل الأفراد داخلها ضمن مفهوم التجانس الذي تخلقه خصوصية هذه الجماعة.

فهي: "الاسم السياسي للشخصية التاريخية، أو الشخصية الثقافية، أو الكيان الحضاري لمجموعة من الناس في مكان معين، وهي تمثل الخصائص الحضارية التي ابتدعتها المجموعة التي تنتمي إليها من: اللغة، والدين، والقيم الجمالية والأخلاقية، وأنماط العلاقات الاجتماعية، والمهارات التقنية، وفلسفة الحياة والموت"[3]؛ فالهوية بهذا المفهوم كيان واسع شمولي تتداخل ضمنه وتتفاعل مكونات عدة تشكل المستويات المحددة لهذا الكيان الواسع، وقد حدد 'مُحَمَّد عابد الجابري' هذه المستويات في حديثه عن الهوية الثقافية بقوله: "هناك إذن ثلاثة مستويات في الهوية الثقافية لشعب من الشعوب: الهوية الفردية والهوية الجمعية، والهوية الوطنية أو القومية، والعلاقة بين هذه المستويات ليست قارة ولا ثابتة، بل هي في مد وجزر دائمين يتغير مدار كل منها اتساعا وضيقا بحسب الظروف وأنواع الصراع التي تحركها المصالح الفردية والمصالح الجمعية والمصالح الوطنية والقومية"[4]؛ فالعلاقة بين هذه المستويات الثلاثة من الهوية تتحدد وتبرز أثر من خلال نوع الآخر أي موقعه، وطموحاته، وتطلعاته؛ حيث تظهر الهوية الفردية إذا كان الآخر هو الجماعة، وتبرز الهوية الجمعية إذا كان الآخر هو الأمة، وتبرز الهوية القومية إذا كان الآخر خارج الأمة، لكن كل هذه الدوائر لها مركز واحد هو الأمة والوطن[5]؛ وفي الحقيقة يتحدد مدلول كل مستوى منها بمدى الشعور بالقيمة الفردية أو الجماعية اتجاه الآخر عبر التفاعل والتجانس الداخلي وفق خصوصيات الفرد تجاه الجماعة أو سمات استقلال الجماعة عن جماعة أخرى.

وبالحديث عن الهوية بوصفها كيانا شاملا يشكل وحدة كبرى، تتفرع لتتعدد وفق علاقتها وارتباطها بمقومات الثقافة، والدين، واللغة، والانتماء، والدولة، والمجتمع؛ "فقد ارتبط مفهوم الهوية بالمسألة الثقافية وأداتها الأولى وهي اللغة، أصبح الثلاثي: هوية- ثقافة- لغة منذ النصف الثاني من القرن العشرين من الاهتمامات الأساسية في العلوم الاجتماعية، بل موضة العصر، وتفسر بناء عليها الحروب والصراعات، والنجاحات والإخفاقات التي تنسب للدول وللأنظمة السياسية، ويرى بعض علماء السياسة والاجتماع والنقاد المختصين في الآداب والفنون أن أزمة الثقافة هي في الحقيقة أزمة هوية"[6].

فالثقافة بكل مكوناتها ومركباتها تختلف من أمة إلى أخرى باختلاف القيم المرتبطة بالتقاليد والمعتقدات وطرق التعبير عنها، وللهوية علاقة مسيسة بالثقافة؛ فالهوية هي جوهر الشيء وحقيقته فهوية الإنسان أو الثقافة أو الحضارة هي لبّها وحقيقتها، وهي مرتبطة بالثوابت والمتغيرات،كما أنه لا يوجد في حياة المجتمعات البشرية ألصق بالثقافة من اللغة والدين، على أن اللغة وإن كانت واضحة العلاقة بالثقافة، فإن الدين بلغ في تأثيره في الثقافة وتأثره بها أحيانا درجة جعلت العلماء يختلفون في وصف أو تحديد نوعية تلك العلاقة فهل هي علاقة جزء بكل أم علاقة كل بكل، أم هي علاقة تطابق في كل الملامح أم علاقة اختلاف؟[7]، وبذلك شكلت بهذا المفهوم نظاما بنائيا موحدا يتركب متعددا من مستويات يحكم حركتها التفاعل ضمن ثنائية التشابه والاختلاف.

ولا يمكننا أن نخرج في ذلك عن قسمين اثنين متداخلين للهوية هما:"هوية فردية: وهي مجموعة علامات أو سمات وقرائن نفسية وجسدية خاصة بشخص بعينه تميزه عن غيره من أبناء جنسه...، وهوية وطنية أو قومية: وهي مجموعة من الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إلى هذه الأمة أو هذا الشعب؛ والاختلاف في مقومات الهوية الفردية والهوية القومية هو اختلاف في النوع وليس في الدرجة؛ فالهوية الفردية ذات سمات جسدية بالأساس والهوية القومية ذات سمات ثقافية بالأساس، ولا تناقض بينهما"[8]، فالأولى تميز الفرد داخل الجماعة الواحدة، والثانية تميز الجماعة الواحدة أو الأمة عن غيرها من الأمم.

كما لا تفوتنا الإشارة إلى مسألة الهوية في علاقتها بالأدب الذي يمثل بلغته الإبداعية فنا تعبيريا عن الإنسان بهمومه وطموحاته، وفكره ومشاعره، بقضاياه ورؤاه، بوجدانه الفردي وحسه الوطني والقومي، بعاطفته وموضوعيته، بذاتيته وانفتاحه، بخصوصية معانيه وعمومها، بالتركيز على النص الشعري وتجلي الهوية فيه من خلال قيمة الوعي الجمعي والقومي وعلاقته بالوصف والفكر الفردي الذي تمثله الذات الشاعرة.

2. الهوية في شعر الفخر عند الأمير عبد القادر الجزائري:

اللغة من حيث كونها أداة تعبير؛ هي كائن حي له كيانه وخصائصه الفنية، وفلسفته التي يعيش بها في أي مجتمع منفعلا ومتفاعلا معه، لذا عدت أساسا لمختلف الدراسات (...)، فكانت بالنسبة إلى المتكلم معايير تراعى وبالنسبة إلى الباحث ظواهر تلاحظ، وبالنسبة إلى البلاغي تشبيهات واستعارات، وبالنسبة إلى أصحاب الدراسات الشعبية هي مظهر من مظاهر السلوك اليومي ممثلا في النشاط الثقافي للجماعة[9]؛ فتحققت بذلك هذه السمات ضمن فنون القول وأصنافه التي تتخذ اللغة منطوقة ومكتوبة مادتها الأولية.

وتبعا لذلك يمكننا القول إن الشعر مادة وعنصر فعال ومحرك لكل نشاط فكري مارسه الإنسان، فهو قيمة معرفية وفكرية وفنية وجمالية، لذا كان منذ القدم أداة الإنسان في التعبير وحفظ الأخبار والأيام والعادات وكل ما يتصل بجوانب الحياة في بساطتها وتعقيدها، وهو وسيلة للمنافحة والدفاع عن الأمجاد ونقل البطولات وتخليد أصحابها؛"والفخر فن من فنون الشعر الغنائي يتغنى فيه الشاعر بنفسه أو بقومه انطلاقا من حب الذات كنزعة إنسانية طبيعية، ولم يكن الفخر هدفا بحد ذاته لكنه كان وسيلة لرسم صورة عن النفس ليخافها الأعداء فتجعلهم يترددون طويلا قبل التعرض للشاعر أو لقبيلته؛ إذن الفخر كان له أكثر من معنى وأكثر من دور، فبالإضافة إلى التصاقه الشديد بالذات الإنسانية يعتبر حدودا تمنع الأعداء من التقدم"[10]؛ فكان ديوانا يرسم وينقل تفاصيل حياة شعب أو أمة ويحفظ لها مقوماتها وقضاياها وهمومها ومرجعياتها، فكان أحد أهم وسائل نقل وإرساء معالم الهوية.

ومن المعروف عبر التاريخ دأب الخصوم والمعادين والمحتلين في اهتمامهم ابتداء بمحاولة طمس هذه المعالم والقضاء عليها كمطلب ضروري لبسط السيطرة وتحقيق الغلبة سواء كان ذلك اتجاه شخص أو جماعة أو قبيلة أو أمة، وهذا ما سعى إليه المستدمر الفرنسي منذ احتلاله للجزائر؛ حيث عمل على إلغاء هوية الكيان الجزائري منذ البداية، فتحول موضوع الهوية الجزائرية وسيلة للدفاع عن الوطن، وموضوعا للكفاح والمقاومة عملا ميدانيا وفكريا وأدبيا، ولعل الأمير عبد القادر الجزائري قد مثل هذه القيمة بمكانته القيادية والفكرية والإبداعية، فكان شعره الفخري نموذجا جيدا لتحقيق هذا الهدف قيمة وتعبيرا، على مستوى شخصه فردا وأمته جماعة، وفيما يأتي نماذج فخرية للأمير لهذا التجلي بمستوييه.

1.2. الهوية الفردية:

تتنوع دوافع الفخر بتنوع شخصية الشاعر وبيئته وزمانه واهتماماته، والأمير عبد القادر بتميزه مكانة ومعرفة وفكرا، فقد عكس شعره هذه المكانة وذلك التميز، واعتداد الشاعر بنفسه سمة بارزة في غرض الفخر، "فالإنسان بطبيعته يحب ذاته، ويتأمل نفسه كثيرا ويقارن بينه وبين غيره من الناس"[11]، ونقف من ذلك عند المقطوعة الشعرية الأميرية *'وراء الصورة'* التي يفخر فيها بنفسه مبرزا بعض ملامحه الشكلية والفكرية أين تتجلى هويته الفردية ممثلة في شخصه ارتباطا بصورته وهيئته، يقول:

لَئِنْ كَانَ هَذَا الرَّسْمُ يُعْطِيكَ ظَاهِرِي ... فَلَيْسَ يُعْطِيكَ الرَّسْمُ صُورَتَنَا العُظْمَى
فَثَمَّ، وَرَاءَ الرَّسْمِ، شَخْصٌ مُحَجَّبٌ ... لَهُ هِمَّةٌ، تَعْلُو بِأَخْمَصِهَا النَّجْمَا
وَمَا المَرْءُ بِالوَجْهِ الصَّبِيحِ افْتِخَارُهُ ... وَلَكِنَّهُ بالعَقْلِ وَبِالخُلُقِ الأَسْمَى
وَإِنْ جُمِعَتْ لِلْمَرْءِ هَذِي وَهَذِهِ ... فَذَاكَ الَّذِي لَا يُبْتَغَى بَعْدَهُ نُعْمَى[12]

وقد كان من عادة الأمير أن يكتب هذه الأبيات تحت صورته أو خلفها لمن يهديها له[13]؛ لذا حملت عنوان وراء الصورة الذي يحمل إشارة توحي بتقديمه لبطاقة تعريفية بنفسه، فالصورة التي تحمل ملامح الإنسان الخارجية أو الجسمية بتفاصيلها تحدد هوية الفرد الذاتية، التي يختلف بها عن غيره بدءا بأفراد أسرته ومن خلالها يدرك الفرد تميزه عن غيره من خلالها فتتحقق ذاته بشكله الخارجي؛ هذا الشكل الذي يمكن الآخر المختلف من رسم انطباع ما عن الشخص ما عبر عنه الأمير الشاعر بقوله: **(لَئِنْ كَانَ هَذَا الرَّسْمُ يُعْطِيكَ ظَاهِرِي)؛** فالصورة الخارجية التي تمثل هيئة الإنسان رسم يحدد سمات خاصة ذاتية تقدم بدورها ملامح وصفات ظاهريةالتي يؤكد افتخاره بما منحه الرحمن من صورة قويمة جميلة الوصف؛ يظهر ذلك في قوله: **(بِالوَجْهِ الصَّبِيحِ)**دلالة على ما تحمله صورته من سمت جميل فصفة **(الصّبيح)** من الصيغ الدالة على تعميق المعنى بالصفة وهي هنا تدل على الإشراق والنور والتألق وتشير مبالغة إلى التمتع بالجمال، ونقف من ذلك عند ما عرف عن الأمير عبد القادر من صفات خَلقية؛ حيث وصفت ملامحه بأنها "كانت من أصفى الطابع الكلاسيكي، كانت جذابة لوسامته المعبرة التي كادت تكون جمالا أنثويا، فأنفه الذي يتوسط وجهه في حجم وسطي وفي شكل رائع – كان بين الأنف الإغريقي والروماني- وشفتاه المنحوتتان بدقة والمضغوطتان قليلا تنبسان بتحفظ مهيب وبوثوق في الهدف، بينما تشع عيناه صافيتان في لون البندق تحت جبهة عريضة في بياض الرخام مع نعومة مكتومة وحزينة أو تتألقان بأشعة العبقرية والذكاء"[14]، هذا الوصف الدقيق لملامح الهيئة تركيزا على الوجه هو تحديد لهوية الفرد بقرائن خارجية جسمانية لا يشبه فيها غيره وهي في الوقت ذاته تقدم صورة ظاهرية تدل عليه لغيره، ولعل الوجه بتفصيلاته المتعددة والمختلفة أساس تقديم هذا الظاهر وجوهر تحديد هذه الهوية.

كما تتحد ملامح هوية الفرد الذاتية الظاهرية بقرائن مكملة للسمات الخَلقية، وهي مركبات هيئة الإنسان في وصف مظهره الخارجي الذي تشكله عناصر الزينة من ثياب وغيرها ليكتمل 'الرسم' الذي تكرر ثلاث مرات في النص الذي بين أيدينا تعبيرا من الأمير عبد القادر على هيئته؛ ومن ذلك أن "كساءه كان بسيطا وصريحا، وليس سوى سلاحه يظهر الزينة، فقد كانت بندقيته التونسية الطويلة مرصعة بالفضة، أما مسدسه فقد كان مرصعا بالجواهر، وكان سيفه الدمشقي مغمدا في غمد من فضة، إن هذه المرافق مع المنح التي خصت بها طبيعة شخصه قد أعطت لمظهره مهابة يصعب التعبير عنها"[15]، المهابة التي صاحبت وصف الأمير القائد الفارس "فكان لا يدانيه أحد فروسية، ولم يكن عبد القادر فارسا مميزا فحسب بل إن تفوقه المدهش في كل متطلبات الفروسية، التي توجب العين القوية واليد الثابتة والرجولة الحقة، كانت حديث كل أولئك الذين عرفوه"[16]، بحيث شكلت الملامح الظاهرية للأمير عبد القادر صفات متفردة مميزه لشخصه دون غيره.

وهو إذ ذاك لا يفخر بهذا الظاهر إلا من خلال ارتباطه بما يعكسه الداخل المعبر بدوره عن قوام هويته الفردية بما يحمل من فكر ووجدان وأخلاق وقيم على اختلاف جوانبها سماها ***(صُورَتَنَا العُظْمَى)***؛ لتتحدد العظمة فيما وراء الصورة الظاهرة للفرد من ***(همّة وعقل وخلق أسمى)***؛ فالعقل يعبر عن الفكر وحسن التدبير والحكمة، والهمة ترتبط بالعمل والتسيير وتوجيه النفس، أما الخلق فيدل على القيم والمثل والمبادئ الشرعية والإنسانية في ارتباطها بالفكر والعمل، وهو اختيار واستخدام موفق للألفاظ بإيجازها المركز دلت على العموم، وهي محل الفخر في نظر الأمير عبد القادر وتتم بها النعمة في اجتماعها مع الصفات الخَلقية للفرد، والتي تحقق باجتماعها هوية الفرد الحقيقية بكل أبعادها ومستوياتها: *'الواقعية:* وهي التي يدرك بها الفرد إمكانياته وقدراته ومكانته والأدوار المناطة به في العالم الخارجي، ويتضمن هذا

المستوى من الذات الاتجاهات الشعورية للفرد نحو نفسه. *الذات الاجتماعية:* وهي ذاتنا كما نعتقد أن الآخرين يرونها، وعلى الرغم من أن هذه النظرة قد لا تكون مطابقة في الواقع للصورة التي يرانا بها الآخرون فعلا، فإن لهذا المستوى تأثيرا مباشرا في سلوكنا والطريقة التي نجهد بها لإثبات هويتنا. *والذات الظاهرية:* يفسر بها الفرد في الغالب القيمة الاجتماعية للذات على ضوء خبراته الشخصية. *والذات المثالية:* وهي النموذج الذي يرغب الشخص أو يأمل أن يكون عليه"[17]؛ فهوية الفرد لا تكتمل ظهورا وتعبيرا إلا باجتماع هذه المستويات بانسجام وتجانس بينها وتفاعل يخلق للهوية الفردية وحدتها، وبانفصالها تبقى غير واضحة في جانب من جوانبها وهذا ما ناسبه ودل عليه التعبير الشعري للأمير في قوله **(فَمٌ، وَرَاءَ الرَّسْمِ، شَخْصٌ مُحَجَّبٌ)**؛حيث تقصر الهيئة الظاهرة لوحدها عن تحديد هوية الشخص الذي يبقى محجبا عن غيره بغياب ملمحه الداخلي الذي يكمن وراء رسمه وصورته الخارجية فكرا ووجدانا.

لقد شكل النص الشعري 'وراء الصورة' للأمير عبد القادر على قصره (أربعة أبيات) دالا مركزا منفتحا على الدلالات التي تصب كلها في تحديد معالم وملامح وأبعاد ومستويات الهوية الفردية في تعبيرها عن شخص الأمير عبد القادر ظاهرا وباطنا، بأسلوب تصويري بارع دقيق، حمل مع دقته وإيجازه تفاصيل شخص الأمير عبد القادر في هيئته الخارجية وكوامنه الداخلية نفسا وفكرا وقيما، ناقلا للقارئ تجليات الهوية الفردية الأميرية في تميزها عن غيرها من الأفراد بخصوصيات حددت له رسما معينا يختلف ويتفرد به داخليا وخارجيا، ومن نماذج تجلي هوية الفرد في فخريات الأمير قصيدة **'بي يحتمي جيشي'** التي نقف عندها محاولين استجلاء مكامن الهوية الفردية، يقول فيها مفتخرا بشخصيته المحاربة البطلة:

أَمِيرٌ إِذَا مَا كَانَ جَيْشِي مُقْبِلاً ... وَموقِدُ نَارِ الحَرْبِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَالِي
إِذَا مَا لَقِيتُ الخَيْلَ إِنّي لأَوَّلٌ ... وَإِنْ جَالَ أَصْحَابِي فَإِنّي لَهَا تَالِ
أُدَافِعُ عَنْهُم مَا يَخَافُونَ مِنْ رَدَى ... فَيَشْكُرُ كُلّ الخَلْقِ مِنْ حُسْنِ أَفْعَالِي
وأُورِدُ رايَاتِ الطِّعَانِ صَحِيحَـــةً ... وَأُصْدِرُهَا بِالرَّمْيِ تِمْثَالَ غِزْيَالِ
ومِنْ عَادَةِ السَّادَاتِ بِالجَيْشِ تَحْتَمِي ... وَبِي يَحْتَمِي جَيْشِي وتُحْرَسُ أَبْطَالِي
وبِي تَتَّقِي يَـوْمَ الطِّعَـانِ فَـوَارِسٌ ... تَخَالِينَهُمْ فِي الحَرْبِ أُمْثَالَ أُشْبَالِ
إِذَا مَا اشْتَكَتْ خَيْلِي الجِرَاحَ تَحَمْحُمَا ... أَقُولُ لَهَا صَبْرًا كَصَبْرِي واجْمَالِي
وأَبْذُلُ يَـوْمَ الـرَّوْعِ نَفْسًـا كَرِيمَـةً ... عَلَى أَنَّهَا فِي السِّلْمِ أَغْلَى مِنَ الغَالِي[18]

تظهر هذه الأبيات المسؤولية التي يتحملها الأمير اتجاه وطنه وجيشه، مفتخرا بهذه المسؤولية ومقدرته على تحملها قائدا وزعيما يذود ويدافع عن جيشه متقدما صفوفهم، مقاتلا دونهم، حاميا لهم، فهو الأمير لهم حين تقدمهم وآخرهم حين رجوعهم، باذلا لأجلهم النفس أغلى ما يملك الإنسان، وهو على غير عادة الزعماء في علاقتهم بجيشهم الذي يكون حاميا لأميره، فهو له حام، وسببه في ذلك هؤلاء الفوارس من جيشه في احتمائهم به بالأشبال الذين يحتمون بالأسد:

وبِي تَتَّقِي يَوْمَ الطِّعَانِ فَوَارِسٌ ... تَخَالِينَهُمْ فِي الحَرْبِ أُمْثَالَ أُشْبَالِ

في صورة تشبيهية تمثيلية عمقت المعنى مبالغة في الاعتداد بالنفس وإثباتا للمهابة والقوة، وأكثر من ذلك يشير إلى أصالته في الفروسية وعلاقته بفرسه حين الحرب:**إِذَا مَا اشْتَكَتْ خَيْلِي الجِرَاحَ تَحَمْحُمَا ... أَقُولُ لَهَا صَبْرًا كَصَبْرِي واجْمَالِي**

ما يوحي بأن الأمير القائد يمثل ملاذا ومصدر أمن ودفاع عن الفرس التي تشكو إليه فيحنو عليها لتصبر كجميل صبره، ووجه الشبه بين الفارس والفرس هو الإقدام والتحمل وبذل النفس والجود بها؛ فهذا يقدم ويجود لأجل جيشه وتلك تقدم وتجود لأجل فارسها.

تبدو شخصية الأمير عبد القادر من خلال هذه الأبيات الحماسية الفخرية ذات صفات خاصة فريدة؛ كيف لا وهو القائد الزعيم البطل الذي لا يدانيه أحد في شجاعته وإقدامه ودفاعه عن جيشه، وهذه الصفات لا تجتمع إلا لعظيم ولا يدركها إلا شخص متفرد ذو همة عالية وفكر متقد في التعامل مع المعارك والحروب، لتتحدد هويته الفردية الممثلة 'للأنا' في تميزها بقيم وملامح قيادية وبطولية تميزه عن غيره باختلافه فيها ضمن علاقته وتفاعله تجاه غيره (جيشه)، وهو إذ يفخر ويعتز بذلك بأسلوب حماسي يقدم صورة توحي بإثبات تميزه بمثل ومقومات لا يشابهه فيها أحد، تقترب به من الأسطورية في المجد والبطولة والخلود، فجمع بذلك بين التعبير عن شخصيته وإبراز هويته؛ حيث إن "تأكيد الهوية

يتطلب القدرة على الاندماج وتحقيق التجانس الداخلي، أي ظهور شخصية فردية ومدى قدرة تلك الشخصية على تنسيق السلوك العام للفرد في الزمان والمكان، غير أن هناك فرقا بين مفهوم الشخصية ومفهوم الهوية الفردية، فالشخصية تتضمن هوية الفرد أثناء الفعل الفردي في مستوياته العقلية والنفسية والاجتماعية، في وضعية ثقافية يعبر عنها الفرد باسم الجماعة، ونقرأ فيها بصماته المميزة، أما الهوية الفردية فهي في علاقة مع الآخر وعن طريقها يتعرف الشخص على نفسه ويصنف الهويات الأخرى بناء على تلك العلاقة"[19]؛ فالأمير عبد القادر قدم توصيفا لهويته الفردية من خلال علاقته بجيشه كقائد ومدافع وحام له، محاولا في الوقت ذاته تعزيز قيمه ومثله الشخصية ضمن هذه العلاقة.

وإذا تأملنا عنوان القصيدة **(بي يَحْتَمِي جَيْشِي)**نلاحظ تقديم شبه الجملة (بي) عن الفعل والفاعل (يحتمي جيشي) والأصل (يحتمي جيشي بي)، والتقديم والتأخير أسلوب بلاغي لعل من أبرز دلالاته ووظائفه البلاغية لفت الانتباه للعنصر المقدم للاهتمام به والتأكيد على دلالة معية حسب السياق، وتقديم (بي) في الجملة (بي يحتمي جيشي) فيه إشارة إلى التأكيد على مكانة الأمير في جيشه زعيما وقائدا تنسب له الأولية والأسبقية على صفوف جيشه، ودلالة على صفات هذه الأولية من القدرة والقوة والمهابة المتفردة في شخصه دون غيره، كما توحي بإبراز عظمة الأمير عبد القادر الذي شكل درعا واقيا دون جيشه فاقتضى تقديم اللفظ الدال على ذلك، كما نسب الجيش لنفسه بقوله (جيشي) دلالة على تبعيته له وانتسابه إليه ومعرفته به، وفضلا عن ذلك التفاف عناصره حول قائدهم واحتماؤهم به كما دلت على ذلك الأبيات السابقة تفصيلا لإجمال العنوان، والجيش ركن الدولة الأعظم ومبدأ أمنها ومركز قوتها، فكان لشخصية قائد الجيش أن يتصف بصفات القوة والقدرة التي تعكس قوة وقدرة الجيش.

ويؤكد على هذه المعاني التي تبرز ملامح الهوية الفردية للأمير عبد القادر في علاقته بجنود جيشه، وسمات شخصيته في فعله ودوره البطولي الداخلي تجاه جيشه، فخره واعتزازه بتجلي هذه الهوية والشخصية في أعماله البطولية الخارجية ضد الآخر المتمثل في العدو (الجيش الفرنسي)، يقول:

وَعَنِّي سَلِي جَيْشَ الفَرَنْسِيسِ تَعْلَمِي ... بِأَنَّ مَنَايَاهُمْ بِسَيْفِي وعَسَـــالِي
سَلِي اللَّيلَ عَنِّي كَمْ شَقَقْتُ أَدِيمَـــهُ ... عَلَى ضَامِرِ الجَنْبَينِ مُعْتَدِلِ عَالِ
سَلِي البِيدَ عَنِّي وَالمَفَـاوِزَ والرُّبَـى ... وَسَهْلاً وحَزْنًا كَمْ طَوَيْتُ بِتِرْحَالِي
فَمَا هِمَّتِي إِلاَّ مُقَارَعَـــةَ العِـــدَا ... وَهَزْمِي أَبْطَالاً شِدَادًا بِأَبْطَالِي
فَلاَ تَهْزَئِي بِي واعْلَمِي أَنَّنِي الَّذِي ... أُهَابُ، وَلَوْ أَصْبَحْتُ تَحْتَ الثَّرَى بَالِي[20]

فهذه الأبيات تصف حاله في الحرب، حيث تبدو شخصيته الحربية فاعلة محققة للمجد، مفتخرا بفروسيته وبطولاته التي شهد عليها المكان (البيد، الربى، السهل،...) والزمان (الليل) والناس (جيش الفرنسيس، العدا)، وكأني به يعلو بصوت الأنا؛ فإشارة الأمير إلى الشهود على مجده وبطولته وشجاعته ونضاله ومواقفه وانتصاراته من عناصر الحياة والحرب، هي تأكيد على صورته الحربية الأسطورية التي شهد لها العدو قبل الصديق، وستشهد له بها موته بعد حياته بأسلوب مبالغة:**(أَنَّنِي الَّذِي أُهَابُ، وَلَوْ أَصْبَحْتُ تَحْتَ الثَّرَى بَالِي)**، فيا له من مجد ويا له من شأن عظيم.

وقد حقق له غرض الفخر القدرة على التعبير عن وعيه بهويته الخاصة، حيث أظهر لنا سمو وتضخم الأنا لدى الأمير عبد القادر اعتزازا بشخصيته وقدراته الحربية، ومكانته القيادية، وشجاعته وإقدامه في ردع الخطر، وبذل نفسه الكريمة في سبيل ذلك، مستخدما صيغة المتكلم المفرد (عنّي) التي تكررت ثلاث مرات في هذا المقطع والتكرار أسلوب تأكيدي يعمق الدلالة حيث تبقى الصيغة المكررة تتجدد في ذهن القارئ ملفتة انتباهه جاذبة لاهتمامه، كما حقق أسلوب التكرار بعدا إيقاعيا وملمحا نغميا خلق رتابة دالة على الاستمرارية، مما يوحي باستمرار هذه الفاعلية وارتباطها بشخص الأمير فهي صفات قارة متصلة لا تنفصل عنه، إضافة إلى الأدوات المؤكدة تعميقا لهذه الدلالات مثل: (إنّي، الذي، وياء النسبة التي صاحبت قرائن المجد كهمتي، هزمي)؛ وإنه في كل ذلك ليفخر بمكانته وموقعه من الجيش فردا من جماعة ممثلا للقوة ومعاني المجد والإباء، وإن تجلي الهوية الفردية للأمير لهي في هذه الملامح والمعاني التي بها تحدد وجوده وتحققت فاعليته.

كما تتمثل في منهجية حياتية ارتبطت بالأمير عبد القادر في شؤون إمارته كوحدة متكاملة لا في ركنها العسكري وحده، يظهر مثل ذلك في قصيدة ***'شددت عليه شدة هاشمية'***، يقول:

لِذَاكَ عَرُوسُ المُلْكِ كَانَتْ خَطِيبَتِي ... كَفَجْأَةِ مُوسَى بِالنُّبُوَّةِ فِي طُـوَى

وَقَدْ عَلِمَتْنِي خَيْرُ كُفءٍ لِوَصْلِهَـــا وَكَمْ ردَّ عَنْهَا خَاطِبٌ بالهَوَى هَوَى
فَوَاصَلْتُهَا بِكْرًا لَـــدَيَّ تَبَرَّجَـــتوَلِي أَذْعَنَتْ والمُعْتَدِي بالنَّوَى ثَوَى[21]

فهو في هذه الأبيات يصف حصوله على الإمارة ويؤكد جدارته وأحقيته بها، في صورة شعرية تشبيهية مركبة رائعة بارعة استحضر فيها قصة النبي 'موسى عليه السلام' وتبشيره بالنبوة بالنداء الرباني العظيم في الوادي المقدس (طُوى)، في قوله تعالى: ((إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى))[22]، في تناص تآلفي مع النص القرآني، فالإمارة شبيهة بالرسالة الإلهية قداسة لما تحملة من مسؤولية عظيمة تجاه الأمة، والأمير شبيه للنبي في تأديته لهذه الرسالة وتحمّله للمسؤولية، وأحقيته بالإمارة تشبه فضل النبوة عند موسى عليه السلام، وهي صورة تفيض بمعاني الشهامة والهمة والرشد لهذه الشخصية الفذة، وتشير إلى هوية إسلامية للأمير عبد القادر فاستحضار النصوص القرآنية تجل لهوية المبدع المسلم المتشبعة بتعاليم الدين لغة وفكرا، وتشكل محلا للفخر والاعتزاز بهذا الانتماء.

أما الصورة الثانية فقد قامت على تشخيص الإمارة مستعيرة سمات الأنوثة في حسنها ودلالها، وقبولها بعد تمنع للخاطب الشهم الكفء الذي يستحقها دون غيرها، هي تلك العروس الملكية، وقد حملت هذه الصورة تعميقا لدلالة جدارة وأحقية وكفاءة الأمير للإمارة؛ كما دلت هذه الصورة الشعرية المركبة على براعة الأمير الشاعر في التصوير وحسن اختياره لعناصر الصورة بين التشبيه في الأولى والاستعارة في الثانية، وقدرته على المقاربة بين أطرافها، وهو فيها يشيد بنفسه ويفخر بتفرده وتميزه عمن سواه بسمات لهوية فردية حققت له شرف وفضل الزعامة والإمارة، كما يفخر تبعا لذلك بسياسته الرشيدة وحكمته وقيادته العادلة المنصفة إذ يقول:

وَقَدْ سِرْتُ فِيهِمْ سِيرَةً عُمَرِيَّةً وَأَسْقَيْتُ ظَامِيهَا الهِدَايَةَ فَارْتَوَى
وإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا الَّذِي يُثِيرُ الدَّيَاجِي بالسَّنَا بَعْدَمَا لَوَى[23]

وهي صورة شعرية تشبيهية أخرى شبه فيها الأمير نفسه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه في سيرته العطرة المسطرة بمداد العدل والإنصاف والحكمة والرشد والمبادئ الإنسانية الرفيعة السامية، متأصلة الجذور من تعاليم الدين الحنيف؛ ولعل في ذلك إشارة من الأمير إلى أن الشخص الذي يصلح للإمارة لابد أن تتوفر فيه سمات شخصية خاصة مميزة تشبه تلك التي اتصف بها 'عمر بن الخطاب رضي الله عنه' والذي لا يدانيه فيها أحد ولا يقاسمه فيها غيره؛ ومثل ذلك سمات شخصية الأمير عبد القادر لا يتوفر عليها أحد في زمانه هيئة وفكرا ومعرفة ودينا وقوة وعبقرية ومهابة، وقبل ذلك افتخر بعلمه في القصيدة ذاتها بقوله:فَإِنْ شِئْتَ عِلْمًا تَلْقَنِي خَيْرَ عَالِمٍ وَفِي الرَّوْعِ أَخْبَارِي غَدَتْ ثُوهِنُ القِوَى[24]

حين جمع بين العلم والقوة وهذان لا يجتمعان إلا في شخص ليس كغيره من الناس؛ لتكتمل بذلك صورة الهوية الفردية للأمير عبد القادر في جانبيها الداخلي والخارجي، التي جمع فيها الخصال الحميدة بصنوفها الدينية والثقافية والقيادية والحربية والإنسانية ولم يقصر في واحدة منها ليستقر رسم حدودها وفق هذه الصفات.

حيث تتجلى الهوية الفردية في مدى وعي الفرد بانتمائه الديني والاجتماعي والثقافي الذي تتحدد معه الفاعلية الداخلية بين الأفراد، في محاولة الشخص الإحساس بفردانيته داخل هذه المنظومة بوجود المختلف الذي يتفاعل معه ويعتز فردا بقيم تعبر عن ذاته استقاها فطرة واكتسابا تبعا لانتمائه وتحققت ضمن تفاعله.

2.2. الهوية الوطنية والقومية:

تتحدد الهوية الوطنية والقومية حين "تلتقي أبعاد الذات ومستوياتها في تكثف رمزي يقوم على معيار الانتماء في مقابل تكثف رمزي آخر لابد منه لأنه يسمح بتحديد مجال انتشار الهوية، أي: نحومها والتعرف على من ينتمي إليها ومن هو خارج عنها، وبهذا المعنى فإن الهوية الثقافية تصلح كأداة للتمييز بين نحن (المجموعة الوطنية)، وهم أو الآخرون (الأجانب أو الذين لا يحملون الجنسية المقننة للمجموعة الوطنية)"[25]؛ فارتبطت بذلك الهوية الوطنية والقومية في تعبيرها عن الجماعة بالبعد الديني والتاريخي والسياسي والثقافي الذي يجمع في تجانس وتفاعل بين أفران الوطن الواحد والقومية الواحدة.

وفكرة الجماعة "منذ القدم حاضرة دوما ومؤثرة تفوق سلطتها سلطة الفرد حتى على أسرته، فكان انتماء الفرد إلى القبيلة أكثر من انتمائه إلى أسرته، هذه القبيلة التي تكاد تكون دولة قائمة بذاتها، وعلى رأسها أحد أبنائها ممن يتصف بالمروءة والشجاعة وسداد الرأي، ويساعده في أداء مهامه بعض العقلاء من القبيلة، وللقبيلة موطن تمارس سلطتها فيه،

وهو ما كان يسمى الحمى، ولذلك كنا نسمع دائما عبارة 'حامي الحمى' أي الوطن الذي تعيش فيه القبيلة بجميع أفرادها"[26]؛ فمفهوم الجماعة الوطنية والقومية راسخ في ثقافة وتاريخ الشعوب، وهو المفهوم الذي ينظم حياتها في علاقات الأفراد على جميع الأصعدة، هو النظام الذي يحكم هذه العلاقات ويتحدد ضمنه جملة من العادات والتقاليد والأعراف والقوانين والنظم والقيم إنسانيا واجتماعيا وسياسيا تمكن الأفراد من الانسجام والتجانس فيما بينهم تحت مسمى الوطنية أو القومية، وقد شكلت الوطنية والقومية عنوانا للانتماء أرضا ودينا وثقافة تحدد هوية جمعية تخص جماعة دون غيرها، تؤطرها مقومات أساسية تختص بها الأمة الواحدة وهي: الدين واللغة والسلالة والتاريخ والثقافة.

وأبرز شخصيات هذا الكيان الواحد هو الزعيم أو القائد ويمثله في هذا المقام الأمير عبد القادر، ويعضد بروزه كأهم شخصية ضمن جماعته كونه شاعرا مبدعا؛ فالشاعر كان ولازال لسان حال جماعته حامل لواء الدفاع عنها، وهو ناقل أخبارها ومآثرها، في ثوب فخري يعتز بأمته ووطنه مجليا هويتها بمقوماتها في وحدتها وتعددها، في ائتلافها واختلافها، ونقف من ذلك في النص الذي بين أيدينا عند نماذج شعرية فخرية نقل فيها الأمير عبد القادر هذه المعاني.

وأبرز قيمة في ذلك هي تعزيز المواقف والمثل في الفخر؛ الذي يجلّي الهوية الوطنية والقومية، ولعل الحروب هي الميدان الثري لذلك، والأمير القائد الذي صارع لإرساء معالم أمة وتأسيس دولة كان شعر الفخر وسيلته للتعبير عن وطنيتهوقوميته، ومن نماذج ذلك قصيدته ***'أبونا رسول الله'*** التي يقول فيها مفتخرا:

أَبُونَا رَسُولُ الله خَيْرُ الوَرَى طَرا فَمَنْ فِي الوَرَى يَبْغِي يُطَاوِلُنَا قَدْرَا
وَلاَنَّا غدًا دِينًا وفَرضًا مُحَتَّمًا على كلِّ ذِي لُبٍّ بِهِ يأْمَنُ الغَدْرَا
وحَسْبِي بِهَذَا الفخْرِ منْ كُلِّ منْصِبٍ وعنْ رُتْبَةٍ تسمُو وبيضَاءَ أَوْ صُفْرَا
لعَلْيائِنَا يعْلُو الفَخَارُ وإِنْ يَكُنْ بِهِ قدْ سَمَا قوْمٌ، ونَالُوا بِهِ نَصْرَا
وباللهِ أُضْحَى عِزُّنَا وجَمَالُنَا بتقْوَى وعِلْمٌ والتَّزَوُّدُ للأُخْرَى
ومنْ رَامَ إِذْلاَلاَنَا قلتُ: حَسْبُنَا إِلهُ الوَرَى والجَدّ أَنْعِمْ بِهِ ذُخْرَا[27]

أبيات يفخر فيها الأمير عبد القادر شاعرا مسلما بانتمائه لهذا الدين العظيم، وارتباطه نسبا بالسلالة الطيبة الكريمة التي يعود أصله فيها آباء وأجدادا إلى النبي مُحَمَّد ﷺ، يا له من شرف وعز ويا لها من كرامة وخيرة، ولعل تمثل الإسلام واستحضار صورة شخصية الرسول ﷺ جانب مهم في إبراز الشاعر لهويته القومية المتجلية بمقوم الدين، حيث ذكر النبي ﷺ بوصف الأبوة **(أبونا رسول الله)** وهو عنوان القصيدة والتركيب الذي افتتحها به في البيت الأول ليدلل على قوة الانتماء برابطة الأبوة التي تمثل أقوى رابطة للفرد في علاقته بالأصل ضمن منظومة العلاقات الأسرية حيث تحدد هذه الرابطة نسب الفرد في علاقته بجماعة معينة (الأسرة)، وجاء اللفظ بصيغة الجمع 'أبونا' تعبيرا عن صوت الجماعة 'نحن' الدالة على الانتماء والقومية.

كما أشارت الأبيات إلى الاعتزاز بالعبودية لله وحده، هذه الرابطة التي شكلت قيمة ومقوما أساسيا يلتف حوله أفراد الجماعة وبه تتحدد لهم سمات خاصة توصف بها هذه الأمة دون سواها من خلال ارتباط هذه القيمة بالدين الإسلامي ولا ريب (بالله، إله الورى)، وتتجلى هذه القيمة في استحضار إشارات من النص القرآني، يظهر ذلك في قوله:

وباللهِ أُضْحَى عِزُّنَا وجَمَالُنَا بتقْوَى وعِلْمٌ والتَّزَوُّدُ للأُخْرَى

وهو تناص مع قوله تعالى:﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾[28]، ولعل في ذلك دلالة على القيمة الأخروية التي من أجلها وجدت القيمة الدنيوية (العبادة) التي أشرنا إليها ابتداء.

وهذا نموذج للشاعر المسلم الذي يفخر بمبادئ دينه القويم، ويعتز بمعالم عقيدته التي تتجلى بها ووفقها حدود هويته القومية الإسلامية في اختلافها عن قوميات أخرى تختلف في الدين والعقيدة، فالدين يمثل قيمة ذاتية لهوية الأمة، التي تمثل "رابطة روحية ضميرية بين الفرد وأمته، بمقتضاها يسعى إلى إعلاء شأن هذه الأمة ورفع مكانتها بين الأمم"[29]؛ وكان الأمير عبد القادر خير ممثل بأبياته السابقة عن اعتزازه بالهوية القومية في مقومها الديني حيث دل عن وعي عميق بأهمية الإسلام كمكون للهوية ودوره في إرساء معالمها وبيان ملامحها ضمن كيان الأمة الواحدة فجاء تركيزه على العبادة والعقيدة واتباع النبي ﷺ، بإيجاز ملم بديع، وأسلوب كفيل بشحن أبناء الأمة لعزهم بانتمائهم لهذا الدين رمز وحدتهم من جهة،

وتوجيه رسالة للآخر الأجنبي فحواها تعريف ودفاع، وعديدة هي النماذج الشعرية الفخرية الأميرية التي تدلل على هذه المعاني الساميات منها قوله في قصيدة **(شددت عليه شدة هاشمية):**

فَإِنَّا أَكَالِيلُ الهِدايَـــةِ والعُـــلاَ ومن نَشر عَلْيَاهَا ذَوِي المَجْد قدْ طَوَى
فنحنُ لنَا ديـــنٌ ودُنيَا تَجَمّعَـا ولاَ فَخْـــر إلاَّ مالنَا يرفَـــعُ اللِّـــــوَا
مَنَاقِبُ مُختاريَّةٌ وقادِريَّـــــة تَسَامتْ وعَبَّاسيَّة مَجْدهَا احْتـــوى[30]

فهو يفخر بالمجد وشرف الدين وكرامته وهدايته، في صور مناقب رمزت إلى شخص النبي ﷺ انتسابا واتباعا في قوله (مختارية) إشارة إلى النبي المختار ﷺ، وبني العباس دولة رامزة إلى قومية إسلامية في قوله (عباسية) في إشارة إلى العباس رضي الله عنه أحد أعمام النبي ﷺ، وتخصيصا للمذهب الصوفي المتمثل في الطريقة القادرية في قوله (وقادرية)، كلها رموز وإشارات تجلي سمات الهوية الإسلامية في جزئيات رمزية لها من الأهمية ما جعلها أسسا ومقومات ركيزة ضمن هوية الدين، وهو إذ ذاك يفخر بعلم وفقه أمته وتعمقها معرفة في أمور دينها ودنياها علما وعملا، فيعلي من شأنها ويمجد خصالها ويثبت لها التميز.

ليعرج بنا الأمير الشاعر إلى مقوم أساسي آخر ترتكز إليه الهوية الوطنية والقومية وهو مقوم اللغة؛ اللغة العربية الحاملة للدين والفكر والثقافة والوجدان، هي منحة ربانية تمثل ترجمان الإنسان تجاه جوانب حياته، ومكونا تعبيريا اتخذ وسيلة للتواصل والحوار مع الأفراد، وتختلف اللغات باختلاف الأجناس والقوميات، ولعلها أبرز مقوم يجمع بين أفراد جماعة واحدة أو قومية أو أمة واحدة بها تتواصل وتتفاعل، وتعكس اللغة العربية تاريخ أمة تشكلت حدودها المكانية والزمانية بشهادة هذه اللغة، التي تعد رمزا للعربي في بداوته وبطولاته ومآثره وعلومه وآدابه وفنونه، وحضارته وتركيبته الإنسانية بشكل عام.

ولا يخفى على أحد ما للغة من علاقة بالهوية معلما ومقوما وركنا أساسيا في انتظام كيانها الواحد والمتعدد، الفردي والجماعي، الداخلي والخارجي، وقد وقف الأمير عبد القادر مفتخرا بعروبته مدافعا عنها في أكثر من موضع من نصه الإبداعي الفخري، ونمثل لذلك بنموذج من قصيدة **(بنا افتخر الزمان)** يقول فيه:

وَرِثْنَا سُؤْدُدًا للعُـــــــــرْبِ يُبْقَى وَمَا تَبْقَى السَّمَاءُ ولا الجِبَالُ

فلفظة (العرب) تيمة خاصة مركزة في دلالتها على العرب إذ هي نسبة إلى اللغة العربية، وبها تحددت الهوية العربية بميزات تخصها كجماعة، وجاء اللفظ (العرب) في سياق فخر الأمير واعتزازه بانتمائه للأصل العربي الذي وصف بأمجاد وسيادة للأمة العربية سطرها التاريخ بحروف من ذهب، وشكل ذلك المجد والسؤدد ميراثا للأجيال عبر التاريخ، سيادة بلغتها وفصاحتها وبيانها وقرآنها الذي قال الله عز وجل فيه عن لغته:﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾[31]، ليتحقق ويتعمق بذلك سؤدد الأمة العربية.

وانظر إلى اللغة العربية التي خلد بها الشاعر مفاخره بحروف دالة وتراكيب إبداعية وصور راقية حملت في طياتها الاعتداد بالعروبة وأمجادها ومقوماتها.

ومن ثم فقد عمل الشاعر الفارس على أن يتواصل ذلك المجد، وأن يكون هو طرفا فاعلا في استمراريته، وذلك بنسج حروفه المتألقة على صعيدي الحرب والسلم معا[32]، يقول الأمير الشاعر:

لنَا فِي كُلِّ مَكْرُمـــةٍ مَجَـــالُ ومِـــنْ فوقِ السّمَاكِ لنَا رِجَـالُ
رَكِبْنَا للمَكَارِمِ كُلَّ هَـــــــولٍ وَخُضْنَا أَبْحُرًا، ولَهَا زِجَـــــالُ
إِذَا عنْهَا تَوَانَى الغَيْـــرُ عَجْـــزًا فَنَحْـــنُ الرَّاحِلُونَ لَهَا، العِجَـالُ
سِوانَا لَيْـسَ بالمَقْصُـودِ لَمَّـــا يُـنَـادِي المُستغيـثُ: ألاَ تَعَالوا
لنَا الفَخْرُ العَمِيمُ بِكُلِّ عَصْـــرٍ وَمَصْرٍ...هَلْ بِهَذَا مَا يُقَـــالُ[33]

والقصيدة طويلة مشحونة أبياتها بالفخر بالقيم والمكرمات العظيمة، تشع بدلالات اعتزاز الأمير عبد القادر بعراقة وأصالة الانتماء وشيم البطولة والشجاعة والشرف لبني أمته وخصالهم الطيبة الحميدة، وأخلاقهم السامية الراقية، ومجدهم وإقدامهم، ووفائهم وكرمهم قولا وفعلا، سلما وحربا، زمانا ومكانا، يتجسد ذلك في قوله:

لنَا الفَخْرُ العَمِيمُ بِكُلِّ عَصْرٍ وَمَصْرٍ...هَلْ بِهَذَا مَا يُقَـــالُ

ليتسع مجال الفخر إجمالا وتفصيلا بكل زمان ومكان كما جعل الزمان شاهدا مفتخرا بدوره بهكذا هوية لهكذا أمة في قوله (بنا افتخر الزمان) ولفظ (الزمان) يدل على التاريخ في استمراره وانتقاله عبر مختلف العصور والأجيال، بهذه الأمة العظيمة التي تتشظى هذه القيم السامية بين أفرادها لتجتمع باجتماعهم كملامح عامة لهويتها الوطنية والقومية.

دون أن ينسى الأمير الشاعر ارتباط العروبة بحياة البداوة قائلا في مطلع قصيدة **(ما في البداوة عيب)**:

لوْ كنتَ تعـرِفُ مـا في البَـدْوِ تَعْذِرُنِي ... لَكِنْ جَهِلْتَ وكَمْ في الجَهْل منْ ضَرَرِ

ولوْ كنتَ أصبحتَ في الصَّحْراءِ مُرْتقِيـا ... بساطَ رَمْلٍ به الحَصْبَـاءُ كالـــدُّرَر

أو جلتَ في روْضَة قدْ راقَ منظَرُهَـــا ... بكُلِّ لوْنٍ جَـــمِيلٍ شَيِّقٍ عَـطِرِ [34]

في قصيدة طويلة تحمل مع طولها تفاصيل الحياة البدوية في أماكنها وجوها وإنسانها وحيوانها، بجزئيات هذه الحياة التي تحمل على بساطتها أرقى معاني الشيم الكريمة والمبادئ الإنسانية النبيلة، التي تعد مصدر فخر لمن يريد أن يفخر، والأمير في ذلك يفخر بأصله البدوي الذي تلخصه (الصحراء) باتساعها وعمقها رمزا، ويعتز بقومه ويعلي من شأنهم ويسرد خصالهم ويعظم نسبهم، ويباهي بانتمائه لهم وتمثيلهم قائدا وزعيما، ساعيا إلى ترسيخ مفهوم 'النحن' في النفوس تعبيرا عن الجماعة الواحدة، والهوية الجماعية، وقد شكلت ملامح الهوية الجماعية السابقة في ارتباطها بالدين والعروبة، دعوة الأمير عبد القادر من وراء فخره إلى إرساء دعائم الهوية الوطنية والقومية، وتمسك أفراد أمته بها والاعتزاز بمقوماتها؛ لأن رابطة هوية الجماعة تحقق فكرة الأمة الواحدة والمصير الواحد والهدف الواحد.

خاتمة:

نخلص إلى القول بأن شعر الفخر للأمير عبد القادر نص نموذج لتجلي الهوية الفردية والوطنية والقومية بكل أبعادها ومستوياتها، فهو لون شعري تحمل لغته بألفاظها ومعانيها وصورها لواء الحافظ لأمجاد الفرد والقبيلة والوطن والأمة، المعبر عن مآثرهم وبطولاتهم، الراسم لتفصلات حياتهم في حلهم وترحالهم، في سلمهم وحربهم، الحامل لأفكارهم وأحاسيسهم الفردية للفرد في علاقته بالفرد واندماجه مع الجماعة، وقد وقفنا في ذلك على بعض النماذج من فخريات الأمير عبد القادر والتي على قلتها – لما تطلبه المقام والمقاربة- حملت أفكارا ورؤى عن مفهوم الهوية الفردية والقومية عند هذا القائد العظيم والزعيم الفذ والفارس الهمام والشاعر المبدع العبقري، الذي سعى كفرد إلى إدراك مقوماته الشخصية إضافة إلى المقومات الذاتية لأمته محافظا على تلك المقومات، معتزا بها مدافعا عنها، معليا من شأنها واعيا بقيمتها فكرا وروحا.

الهوامش:

1- شريف رضا، الهوية العربية الإسلامية وإشكالية العولمة عند الجابري، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص16.
2- عبد العزيز بن عثمان التويجري، العولمة والهوية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية-سلسلة المنشورات-، 1997م، ص166.
3- شريف رضا، الهوية العربية الإسلامية وإشكالية العولمة عند الجابري، ص16.
4- مُحَمَّد عابد الجابري، العرب والعولمة-بحوث ومناقشات ندوة فكرية -،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1998م، ص298.
5- شريف رضا، الهوية العربية الإسلامية وإشكالية العولمة عند الجابري، ص19.
6- مُحَمَّد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية – دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان والهوية ومتطلبات الحداثة والخصوصية والعولمة والعالمية-، ديوان المطبوعات الجامعية، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، ص90.
7 - شتيح بن يوسف، ثلاثية الدين واللغة والثقافة ودورها في إرساء الهوية الوطنية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية –عدد خاص بالملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري-، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ص507-509.
8- شتيح بن يوسف، ثلاثية الدين واللغة والثقافة ودورها في إرساء الهوية الوطنية، ص507.
9- مُحَمَّد الصادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، مكتبة الخانجي، القاهرة، دت، ص175.
10-سراج الدين مُحَمَّد، الفخر في الشعر العربي، موسوعة مبدعون، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، دت، ص5.
11- المرجع نفسه، ص5.
12- الأمير عبد القادر، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، جمع وتحقيق وتقديم: العربي دحو، منشورات ثالة، الجزائر، ط3، 2007م، ص45.
13- المصدر نفسه، هامش ص45.
14- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت، ص63.
15- المرجع نفسه، ص63.

16- المرجع نفسه، ص62.
17- مُحَمَّد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ص100.
18- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص49.
19- مُحَمَّد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ص96.
20 - ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص49.
21- المصدر نفسه، ص54.
22-سورة طه،12.
23- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص54.
24- المصدر نفسه، ص53.
25- مُحَمَّد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ص103.
26- بوجمعة بوبعيو وعمر بلمقني وبريكة بومادة، صورة الزعيم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث، مؤسسة الإنشاد العربي، الجزائر، ط1، 2006م، ص73.
27- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص45.
28- سورة البقرة،197.
29- أحمد مُحَمَّد وهبان، الهوية العربية في ظل العولمة، سلسلة إصدارات الجمعية السعودية للعلوم السياسية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، دت، ج9، ص5.
30- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص53.
31- سورة الشعراء،195.
32 - بوجمعة بوبعيو وعمر بلمقني وبريكة بومادة، صورة الزعيم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث، ص113.
33- ديوان عبد القادر الجزائري، ص53.
34-المصدر نفسه، ص51.

- قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

1. أحمد مُحَمَّد وهبان، الهوية العربية في ظل العولمة، سلسلة إصدارات الجمعية السعودية للعلوم السياسية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، دت، ج9.
2. الأمير عبد القادر، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، جمع وتحقيق وتقديم: العربي دحو، منشورات ثالة، الجزائر، ط3، 2007م.
3. بوجمعة بوبعيو وعمر بلمقني وبريكة بومادة، صورة الزعيم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث، مؤسسة الإنشاد العربي، الجزائر، ط1، 2006م.
4. سراج الدين مُحَمَّد، الفخر في الشعر العربي، موسوعة مبدعون، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، دت.
5. شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت.
6. شتيحين يوسف، ثلاثية الدين واللغة والثقافة ودورها في إرساء الهوية الوطنية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية –عدد خاص بالملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري-، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.
7. شريف رضا، الهوية العربية الإسلامية وإشكالية العولمة عند الجابري، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
8. عبد العزيز بن عثمان التويجري، العولمة والهوية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية-سلسلة المنشورات-، 1997م.
9. مُحَمَّد الصادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، مكتبة الخانجي، القاهرة، دت.
10. مُحَمَّد عابد الجابري، العرب والعولمة-بحوث ومناقشات ندوة فكرية -،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1998م.
11. مُحَمَّد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية – دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان والهوية ومتطلبات الحداثة والخصوصية والعولمة والعالمية-، ديوان المطبوعات الجامعية، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، دت.